

حديث الندوة اللبنانية

ميخال شيحا في التراث اللبناني
ثقافة وانسانية وشعر

ايها المستمعون الكرام،

محاضرة الندوة الاخيرة القاها عندنا الكاتب الايطالي الشهير ايناسيو سيلونه بعنوان "العدمية وعبادة الاصنام في الادب المعاصر". وان نحن اخترنا ايها المستمعون، ان نرجى اعطاءكم خلاصة عنها للاسبوع القادم، فحرصا ~~على~~ منا الآن دع المناسبة تقوتنا، فنحني الليلة معا ذكرى غائب كبير عاش لربه وللبنان، ذكرى ميخال شيحا المثقف والناشط والانسان والشاعر.

الام انما هي في ما يربط بين ابنائها من حميم العلاقة. واستمرار الام هو في تفاعل ما ينتجه المفكرون المعمرون من افرادها، واندماج مواظبتهم وقلوبهم. وهذا التفاعل لا يحصره زمان ولا يحده مجال. فابن "السين" اليوم لا يزال يسترشد بطولة نابليون وهدى ديكرت، وابن "التاميز" بطولة نلسن وهدى بيكن، والالطاني بطولة بسمارك وهدى كانت، والعربي بطولة معاوية وهدى ابن رشد، وابن سينا. ونحن، في لبنان، ما لم نتوشق عرى الالفه بين جميع السواطين لن يكون لنا بروز الام الموحدة الناهضة. ولن نستمر على الزمان ما لم يتفاعل تراثنا القومي الدمس وتفكير كل جيل طالع.

وهكذا يطيب لنا هذا المساء، ان نستجمع مع المستمعين الكرام، نفحة من هذا التراث اللبناني فكرا وروحا، نفحة لا يزال عبقها حيا فينا. فمنذ سبع سنوات، في مثل هذا الاسبوع، غاب عن النظر وجه صديق من ~~ال~~ اصنع الوجوه اخلاصا وكرامة ووطنية واشماتا. غابت ظلته عنا لتدخل في فح ربهنا، تاركة لنا الاسخ في القلوب ولكن مخلقة ايضا اقوالا واعمالا ظلت طوال اربعين عاما تسهم اسهاما كبيرا في خلق لبنان الحديث وفي تدعيم مقوماته.

وكانت الندوة في مطلع العام ١٩٥٤ قد اقامت لميخال شيحا حفلة تكريمية في قاعتها اشترك في حبلك باقاتها قادة الرأي في البلاد فذكروا ما لمفكر لبنان الاول من فكر فضل عميم على التوجيه القومي الصحيح وعلى الحياة الوطنية اجمالا. وقبل ان تلفظ السنة انفاسها الاخيرة كان الرجل يتركنا ونحن في اشد حاجة الى مثله المشجع ورأيه الصائب.

واحتراما من الاصدقاء والرفقاء لما كان يمثله ميشال شيحا من قيم لبنانية خلقة ، انشأ بعضهم مؤسسة باسمه تعمل على احياء ذكراه . ووفاء منا للفكر الكبير واحد اصدقاء الندوة الفاعلين ، كنا لانترك مناسبة تمر حتى نعيد الى الازمان جمال تعامله وصرابية الرسالة التي وقف حياته على تأديتها . وهكذا جعلنا من هذا اليوم في السنوات الست الماضية فترة اذكار نتسامر فيها معكم حول الدور في توضيح القضية اللبنانية وفي العمل على نصرتها وتركيزها .

اما الليلة فنود لو نقضي هذه الدقائق مع ميشال شيحا المثقف الانساني والشاعر . ولعله هو نفسه كان يعتبر الثقافة والشعر منطلق كل نضال وكل التزام زمني . الم يختر ، في اطار نشاطه ، يوما لهما كل اسبوع ؟ الم يكن يظل علينا صبيحة يوم الرب ، بما اسماه " احاديث الاحد " ، تخفف من ضجيجنا وعبثنا الدائم وتدعونا الى التأمل بما هو الاله كي نكيف على هذا الاله تصرفاتنا في الاسبوع المقبل ؟ الم يشرف بنفسه على جمع هذه الاحاديث واصدارها بالطبع قبيل وفاته في كتاب - تحفة عنوانه " تسابيح " ؟ الم تكن قد عرفنا الشاعر فيه في مجموعته الشعرية " بيت الحقل " ؟

اسمعه يقول : " لا بد في حياة كل يوم من القليل من الشعر ، من شيء من الموسيقى والحلم يوازن ما يطغى من حاضرننا من الهموم والاطماع . ان الشعر ، الرفيع منه ، الحقيقي هذاك الذي يهز الاحشاء ويرقى الوجدان بنا فوق واقعنا منتزعا ايانا من وضاعتنا ليشركنا في اغنية الخلق ويجعل منا اسياذ الزمان والمكان ، هذا الشعر في متناول يدنا . فالانسانية ، بعد الطبيعة ، قد نظمتها بالمحبة والايان ، بالجهود والالام . غير اننا ننساه ونصرف عنه للاعمال البليدة التافهة . اننا نترك امجاد الماضي والاناشيد والنداءات والنشوات المقدسة - نتركها ترقد في الكتب والذاكرة ، تتكاثف عليها الخبار ، بينما هي بامكانها في ساعات النفس القاتمة ، ان تعيد الينا طعم المغامرة والفتح واندفاع التعلق والحب . . . ان حياة فقد فيها الشعر لا توازي الحطب اليابس الذي يعطي على الاقل الشعلة والنار . وفي عين المحبة ، ما هي الا شجن طويل وجفاف دون حد . "

شعر وموسيقى : مظهران خالدان من مظاهر الحضارة . ثم الحلم يدعونا الى الانفراد والاعتزال . وهنا ، يتبنى ميشال شيحا قولا لبوسيه جا فيه : " يتوجب على المرء ان يوفر له ساعات من الانعزال الحقيقي ان كان يرغب في المحافظة على قوى النفس " . ثم يضيف : " ان العزلة اصبحت شيئا نادرا في عصرنا الحاضر . في الماضي كانت الاوضاع والمسافات تفرضها . اما اليوم فتري الانسان بيتعه عنها . لم يعد يعرف ان يفرد ، ان يفكر ليعمل ، ان يتأمل ليفهم . لقد سطا علينا الضجيج والصراخ والبلبله وسيطرت علينا الجماهير وجرفنا تيار الكلام الفارغ نغذيه كي نغرق فيه غيرنا . كلام بكلام بكلام . بينما هناك اصوات في الصمت ونداءات ساكنة تفتش عتات وتلاحقنا ، هناك مسارات تهبط علينا من بعيد يجدر بنا ان نتوقف لتلقاها بانفتاح وخشوع . ان ما يساند اعماق نفسنا لا يمكننا وجوده الا في الصمت والسكوت " .

لي صديق كلما تعرف الى الخالدين في التاريخ اوالى الموهوبين من الاحياء ، سواء اعاشوا في محيطه
اما كانوا من النائين عن بلاده ، راح ينقب في سير الاموات ويستنبش الاخبار رسخ في ذهنه وهو ان لا عبقرى
على وجه الارض من ان يجمع بين العمل والحلم ، بين الجهد والتأمل ، بين الواقع والخيال ، بين صخب الخارج
وموسيقى الداخل ، بين ما هو ارضي وما يرقى بالانسان الى التعالي ، اى الشعر الرفيع . يقول غوته : " في البدء
كان الحمل " . غير ان ميشال شيحا يضيف : " ولكن هل في امكان اى عمل ان يكون انسانيا حقا ما لم يكن شاطيء
امانه هدفا عاليا فذا ؟ " .

هذا الهدف تتلمسه في كل سطر من كتاب " التسابيح " . فكل نشيد من هذا السفر دعوة الحق والخير
والجمال . واولى الدعوات هي ان نعيش كما لو كان هناك من يستطيع دائما قراءة افكارنا . ونحن ، ان فعلنا ،
لقضينا نهائيا على روح التأمر التي يحملها كل في نفسه .
ثم هناك الحديث عن الروحانيات تربطنا بالينبوع الاول فنغذى من دفقه كل عمل زمني نأتيه ، ثم الدفاع
عن الحرية تعنتنا من كل قيد اعتباطي لتطلق ملكاتنا نحو النمو والاكتمال ، ثم الاشادة بالشجاعة والمرأة تجعلان
منا مقدامين همامين ، ثم تعليم التحمس والاندفاع لان ما من عمل كبير يكتب له الصمود والازدهار ما لم يكن
وراءه يد مريدة وقلب سخى كريم .

كل هذا ولبنان حاضرا ابدا في ذهن ميشال شيحا . ففصوله الاربعة يوحى كل منها اليه قطعا شعرية
خالدة . شمس جباله يولد في نفسه العزة والطموح ، وسهوله ووديانه تخصب الحنين في قلبه . تربته مقدسة تضم
الماضي الحلوم من بلاده وبحره اللازوردى يطلق توفه الى الاخوة بين البشر والى اللامتاهي من الاحلام . الفلاح
في حقله ، العامل في مصنعه ، الموظف في مكتبه ، الطالب في مدرسته ، رجل الدين في محبده ، المفكر في خلوته ،
المواطن العادى في عمله والحاكم على كرسيه : كل من هؤلاء له نصيبه من قلم ميشال شيحا وعقله وقلبه ، الى جانب
الاراء والنظريات يعطيها حول القضايا الانسانية الكبرى .

المهم عنده ان تتغلغل الروح في كل شعب ، وان تكون هي الاساس عند اللبنانيين . لم يعد يكتفي
اليوم بالحياة الفردية . فالحياة الجماعية رسمت حقوقها بقوة . لا يمكن الشعوب بعد اليوم ان تصمد بوجه
تقلبات الزمن ما لم تكتسب روحية خلاقة محيية . وهذه الروحية الجماعية ما هي في الواقع الا روحية كل فرد تضاف
الى اخواتها عند جميع المواطنين .

في " تسابيح " يدعونا ميشال شيحا الى انقاذ انفسنا كافراد لنضم نغمها الى المعزوفة اللبنانية العامة
فيتولد مر ذلك تألف حضارى بناء يسهم مع المدنيات الاخرى في سعادة بني البشر .

ميشال اسمر